إلى روح الشاعر

ألقيت في حفلة الذكرى للشاعر المرحوم طانيوس عبده بمعهد الموسيقى الشرقي، يوم الثلاثاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٤.

موقفٌ حانَ فاغتنِمْ وتخير مِن الكلمْ
كلَّ لفظٍ أرقَّ مِن ضحكةِ الزهر للدِّيمْ
مستَمَدٍّ من الرُّبى مُستعارٍ من النسمْ
اجمعِ الآنَ طاقةً غضَّةَ النور تبتسمْ
أُهدِها روحَ شاعرٍ خالدٍ بالذي نَظمْ

* * *

قلمي! ما الذي لديـ ـكَ من الخيرِ يا قلمْ؟!
قمْ فذكِّر وناج قو مَكَ واخطُب وقل لهُمْ
قل لأهل الغناءِ في كنف المعهد الأَشمّْ:
ذلك الشاعرُ الذي بات في خاطر الظُّلمْ
هو منكم وفنُّهُ علمَ الله فنكمْ
كان لحنًا فصار ذكـ ـرًا كما يُذكَرُ الحُلمْ
إنما الشعر مزهرٌ قد حكى قصةَ الأممْ
وبأوتاره المنى تتلاقى وتزدحمْ
هو نايٌ مُرجِّعٌ لشجيٍّ وما كتمْ

هـو قـيـثـارةُ الـزمـا ن ونـجـواه مِـنْ قِـدَمْ
هـو أنـشـودة الـحـيـا ةِ وفـيـضٌ مـن الـنـغـمْ

* * *

أيـهـا الـمـعـهـد الـذي بـلـغ الـمـجـدَ واسـتـتـمّْ
كـلُّ لـحـنٍ مـذكـرٍ أشعل القلب فاضطرمْ
نـظـمـتـه يـدُ الأسـى وقَـعـتـه يـدُ الـسـقـمْ
وأنـاشـيـدكـم ومـا صاغه الفنُّ من عِظمْ
هـي أنَّـاتُ أنـفـسٍ بـالـمـقـاديـر تـرتَـطِـمْ
وصـبـابـاتُ أعـيـنٍ يشهدُ الليل لَم تنمْ
وأغـانـيـكـمْ الـتـي هـي فـي قـمـةِ الـقـمَـمْ
هـي آهـاتُ شـاعـر عـرف الـحـبَّ والألـمْ!

* * *

ذلـك الـشـاعـرُ الـذي روحـهُ الآن بـيـنـكـمْ
لـكـأنـي أراه حـيًّـا وألـقـاهُ عـن أمَـمْ
وهـو فـي ذروة الـشـبـا ب وفـي خـفـةِ الـقَـدَمْ
غـاشـيًـا كـلَّ مـنـتـدًى عـاليَ الـرأسِ مـحـتـرمْ
كـلـمـا قـال شـعـرَه غـمـر الـسـهـلَ والـعـلـمْ
دافـقًـا لـيـس يـنـتـهـي أبـدًا سـيـلُـه الـعـرمْ
بـاذلًا لـلـصـديـق والـ ـأهـلِ كـلَّ الـذي غَـنِـمْ

* * *

زوجـه والـبـنـون هُـم مـجـدهُ والـرجـاءُ هُـمْ
درجـوا فـي ذُرَا الـعـلا نـوَّروا فـي رُبـى الـنـعـمْ
نشأوا في حِمى العفا فِ وجلُّوا عـن الـتُّـهـمْ

* * *

حـيـن ظـنـوا بـأنَّ مـا أمَّـلـوا فـي الـزمـانِ تـمْ

إذ شكا الضعفَ سيد الـ ـبيتِ خارت به الهممْ
نام في حصنهِ الضَّنى وعلى صدره جَثَمْ
وإذَا بالطيور قد دخل الموتُ وكرهُمْ
شِبْهَ لصٍّ مخادعٍ غشىَ البيت فالتهَمْ
وإذا الفاقةُ الجريـ ـئةُ تَطْغَى وتَنْتَقِمْ
صنعتْ في رجائهمْ فعلَة الذئبِ بالغنمْ
كأتونٍ مسعَّر غاضبٍ ينثرُ الحُمَمْ!
مَن رأى البؤسَ إن عدا؟! مَنْ رأى الضنك إن هَجَمْ؟
مَن رأى العفةَ العريـ ـقةَ بالدهر تصطدمْ؟!

* * *

أُمَّتي! ليس يُهزَمُ الـ ـفنُّ في أمَّة الشَّمَمْ
أُمَّتي! ليس يخذلُ الـ ـجُودُ في أمَّة الكرَمْ
أُمَّتي! أُمَّةُ العلا وأبي الهول والهرَمْ